الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية :الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

المادة : جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

عنوان المحاضرة : السرد الفلسفي

أولًا– نشأة القصة الفلسفية وتطورها :

مماهو معلوم أن القصة الفلسفية هي فن جديد ظهر نتيجة تأثر الأدباء العرب بترجمة القصص الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية،وظهر توجه سردي يتناول الأفكار الفلسفية في القصص العربي،وتعزز عند الأدباء المتأثرين بالثقافة اليونانية.

1– مفهوم القصة الفلسفية:

تعد القصة الفلسفية من أنواع القصص العربي، ونقصد بالقصص الفلسفي «تلك الأفكار الفلسفية،التي تم طرحها بشكل متنوع الأشكال، وزخر تراثنا العربي بهذا النوع من القصص».

تناول الأديب في القصة الفلسفية تحليل الأفكار الفلسفية ، ويقوم بطرح رؤيته الفلسفية للقضايا الأدبية والاجتماعية أثناء سرده لأحداث قصته.

2– تطور القصة الفلسفية :

زخر تراثنا العربي بفنون سردية كثيرة وقصص متنوعة،فمنها الاجتماعي والديني والتاريخي والفلسفي «وكانت ولادة القصة الفلسفية منذ القرن الثالث الهجري حين ترجم "حنين بن إسحاق"(ت260هـ) قصة سلامان وأبسال عن اليونانية..ثم ألف ابن سينا قصتيه الفلسفيتين "حي بن يقظان"و"سلامان وأبسال" ليؤسس بذلك نهج طرح الأفكار الفلسفية عن طريق القصص».

ظهرت القصة الفلسفية في السرد العربي القديم كنوع جديد في بداية القرن الثالث الهجري بتأثير من القصص اليوناني،ويعد حنين بن إسحاق أول من فتح مجال الكتابة في القصة الفلسفية، ومن القصص الفلسفية نذكر قصة"حي بن يقظان" لابن طفيل«وكان القصص الفلسفي في أدب العربية مدفوعًا ،على مايبدو بحافز فلسفي فقد بدأ رمزيًا مع ابن المقفع وإخوان الصفا،وتحول نحو الاعتزاز بالعلم والمعرفة واللغة مع ابن شهيد والمعري والبديع والحريري..ثم تبلورت هذه المحاولات في رواية فلسفية كاملة هي رواية حي بن يقظان لابن طفيل،فقد رمز بأحداثها إلى آرائه الفلسفية في نشأة الحضارة،واتفاق الشريعة والفلسفة في حقيقة جوهرية جامعة».

تأثر الكتاب العرب بنمط القصص الفلسفي اليوناني،ومن أبرزهم ابن طفيل وابن سينا وابن شهيد والمعري، ومرَّ السرد الفلسفي بمراحل في أدبنا العربي القديم، فكانت إرهاصاته عند ابن المقفع وإخوان الصفا،وتطور ونضج عند ابن طفيل في قصته الشهيرة "بحي بن يقظان"، واتخذ فيها الرمز كوسيلة للتعبير عن قضايا أدبية وفلسفية ودينية.

ثانيًا– الطابع القصصي في السرد الفلسفي :

ظهرت كتابات قصصية فلسفية عديدة في تراثنا العربي، ومن النماذج السردية ذات النزوع الفلسفي نتناول قصة"حي بن يقظان"لابن طفيل"،وأما في الكتابات النثرية فنذكر كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي.

1–السرد الفلسفي في قصة"حي بن يقظان" لابن طفيل" :

تندرج قصة"حي بن يقظان"لابن طفيل الأندلسي ضمن التوجه القصص الفلسفي المتأثر بالكتابات الفلسفية العربية واليونانية«وتمثل هذه القصة رؤية ذاتية لمسيرة الإنسان الحضارية،وتكمن الأهمية السردية لهذه القصة في دلائل الأسلوب القصصي الموجود فيها، وحي بن يقظان لابن طفيل أو أسرار قصص فلسفي يصرح فيه الكاتب بأنه ينقل قصة فيها العبرة..والقصة وسيلة الكاتب وقناعه للتعبير عن تجربته الذاتية إذ أكدت دراسات جمّة أن القصة هي سيرة ابن طفيل نفسه،وتكمن الأهمية السردية لهذه القصة في دلائل الأسلوب القصصي الموجود فيها..ورسم ابن طفيل شخصياته الروائية بطريقة رمزية جعلت من البطل نموذجًا ورمزًا،وقد ساعدت شخصية (أسال) في رسم البطل وإبراز صفاته».

لقد أكدت الدراسات الأكاديمية على أن قصة"حي بن يقظان هي سيرة ذاتيةلابن طفيل،وهي بمثابة وسيلة تعبيرية لما يدور بخلد ابن طفيل من أفكار فلسفية حول وجود الإنسان ومسيرته الحضارية،وصرح فيها ابن طفيل بأن المقصود منها هو العبرة ولقد جسد ابن طفيل بطل قصته"حي بن يقظان" في صورة رمزية نموذجية،طرح من خلاله – ابن طفيل–آراءه الفلسفية بطريقة رمزية خفية «وحاول ابن طفيل تطوير الحبكة السردية بإضافة شخصية أسال وسلامان».

أضاف ابن طفيل "أسال وسلامان" لمساعدته في تطوير أحداث قصته،التي دارت حول البطل"حي بن يقظان"واهتم ابن طفيل برسم صورة نموذجية لبطله«وصاغ ابن طفيل الحكمة في قالب سردي شيق، ورسم شخصياته الروائية بطريقة رمزية جعلت من البطل حي بن يقظان نموذجًا،ودعا إلى الاعتماد على العقل كبديل للمعرفة،وتطرح قصة حي بن يقظان عند ابن طفيل تساؤلات، ووضع قسم من فلسفة الحياة بأسلوب سردي شيق».

حملت قصة حي بن يقظان أبعادًا فلسفية ارتبطت بحقيقة الإنسان،والمغزى من وجوده في الحياة ،وجسد ذلك البطل حي بن يقظان الذي عاش في جزيرة مهجورة،وكان يتأمل في العالم من حوله،ونجد اختلاف في سرد قصة حي بن يقظان عند ابن سينا وابن طفيل«فحي بن يقظان عند ابن سينا شخص معروف يعيش في القدس،وأما حي بن يقظان عند ابن طفيل،فهو غريب لاأصل له يعيش في جزيرة مجهولة».

نلاحظ تعمق ابن طفيل في طرح المسائل الفلسفية في قالب سردي ممتع،ومع غلبت الطابع الواقعي على سرد ابن سينا وتقع قصة ابن طفيل "حي بن يقظان"«في سبعة أقسام،ويسمى كل قسم أسبوعًا،وجعل الأسبوع سبع سنين، وتلخص القصة حياة البطل في الجزيرة المجهولة،وتنتهي قصته بالكشف والمشاهدة،وتكمن الأهمية السردية لهذه القصة في دلائل الأسلوب القصصي الموجود فيها بدءًا من السائل، ومرورًا بالأسلوب القصصي،الذي يشكل الطريقة الأمثل لجذب الانتباه».

اعتمد ابن طفيل على العدد سبعة في تقسيم قصته إلى أقسام وأسابيع،ودارت أحداث القصة حول البطل حي بن يقظان الذي حمل قضية فلسفية،والملاحظ أن قصة حي بن يقظان ألهمت أدباء وعلماء، فكتبوا على منوالها،ونجد ذلك ليس فقط عند ابن طفيل بل عند السهروردي وابن سينا« فهناك أمران يربطان قصة ابن طفيل بالقصة التي أشار إليها ابن سينا.

الأول:هو اسما سلامان وأبسال فهما اسمان لهما دوركبير في قصة ابن طفيل،وهما بطلا قصة تسع رسائل سيحاول السهروردي أن يمزجهما بمزية الطير.

الثاني:أن ابن طفيل أورد حي بن يقظان قيل إنه لم يولد من رحم امرأة،وإنما بواسطة توافق العناصر في تربة طيبة تحت ظرف معين،وهذا مانجده أيضًا في قصة ابن سينا بشكل قريب للتطابق،وابن طفيل إذ يورد أن هنالك رأيًا آخر غير الذي اعتمده في تصوير كيفية تولد حي بن يقظان ،فإنه يحيل السرد إلى مرجعية سابقة».

نجد توافق عند ابن طفيل والسهروردي وابن سينا في السرد الفلسفي لقصصهم مع الاختلاف في رسم صورة البطل عندهم والغاية من القصة الفلسفية.

2–السرد الفلسفي عند أبي حيان التوحيدي :

ظهر السرد الفلسفي عند التوحيدي في مؤلفات كثيرة، ومن أهمها كتاب الإمتاع والمؤانسة الذي نتناوله وفق مايلي:

أ–العقد السردي :

تمثل العقد السردي في علاقة التوحيدي بالوزير ابن سعدان « فعلاقة التوحيدي بالوزير هي العلاقة بين السامع والمتكلم وعلاقة السائل بالمجيب ، فمنذ الليلة الأولى يقوم ابن سعدان بإبرام العقد السردي مع التوحيدي، وينزله منزلة المجلس الوفي يتعرف منه على أشياء كثيرة».

اتضح سبب تأليف التوحيدي لكتاب الإمتاع والمؤانسة،الذي هو عبارة عن محاورات فلسفية أخذت طابعًا قصصيًا،وظهر أسلوب المحاورة في الكتاب بين التوحيدي والوزير،فجاء في الليلة التاسعة والثلاثون،قال له الوزير ليلة:«يعجبني الحوابُ الحاضر،واللفظ النادر، والإشارة الحُلوة، والحركة الرضية ،والنغمة المتوسطة،لانازلة إلى قعر الحلق،ولاطافحة على الشفة، فكان من الجواب :اقتراح الشيء على الكمال سهل ،ولكن وجدانه على ذلك صعب ».

وهنا ظهر لنا أن الوزير ابن سعدان يسأل أو يستفسر والتوحيدي يجيب ويوضح مع اعتماده على طريقة الإيجاز،والقصد في الكلام«وكان ابن سعدان يسأل أبا حيان،فيجيبه إجابة وافية شافية، وأحيانًا كان الوزير يتَّخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى يفرعها،وكتاب الإمتاع والمؤانسة ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم ...فابتدأ أبو حيان التوحيدي كتابه صوفيًا ، وتوسطه محدثًا ،وختمه سائلًا مُلحقًا ».

اختلفت أساليب السرد عند التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة بين الإخبار والمحاورة والمناظرة والتأمل ، ولذلك نجد ثراءًا معرفيًا في الكتاب ،وسلك التوحيدي فيه طريقة الأديب المتفلسف .

ب –الطابع القصصي في كتاب الإمتاع والمؤانسة :

حفل كتاب الإمتاع والمؤانسة بسمة القصة الإطار،أوالسرد الإطار Frame narrative حيث يتوجه الراوي الأول إلى المروي عليه أبي الوفاء ليحكي مادار بينه وبين الوزير ابن سعدان في ليالي الإمتاع والمؤانسة».

تشكلت القصة الإطار من خلال سرد التوحيدي لأبي الوفاء،وصاغ التوحيدي جميع قصصه التي تجلت في شكل محاورات بينه وبين الوزير ابن سعدان« ولقد صاغ التوحيدي محاوراته في قالب قصصي، بينما شكلت القصة الإطار الذي يحتوي المحاورات، ويعيد إنتاجها مما يُسهم في توليد محاورات أخرى.

وقدّم التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة تصوّرًا شاملًا لمختلف قضايا الثقافة العربية الإسلامية».

طرح التوحيدي محاوراته الفلسفية ضمن قصة إطارية ، وتعرض لقضايا فكرية وفلسفية وأدبية دون أن يغفل عن جماليات السرد، وظهر الطابع السردي القصصي في كامل كتاب الإمتاع والمؤانسة،وشكل الكتاب رؤية التوحيدي وموقفه من مختلف القضايا الأدبية والفلسفية والسياسية.

3–البنية السردية في نصوص الإمتاع والمؤانسة :

اختلفت طريقة تأليف التوحيدي لكتابه الإمتاع والمؤانسة عن عمل كتاب الأخبار والأقاصيص « فهو لايسلك مسلك الرواد الذين يتقيدون بالغريب من الأخبار والأشعار؛وإنما يهتم بالنواحي الأدبية والتاريخية من حياة الرجل».

اهتم التوحيدي برواية الأخبار من الناحية الأدبية والتاريخية،فحشد في كتابه الإمتاع والمؤانسة مجموعة من الروايات والأخبار في شكل خطابات سردية متنوعة«وإذا ماجئنا لقراءة هذه الخطابات السردية ألفيناها قصصًا ذات طبقة عالية من الأدبية مميزة في حبكتها وطرق السرد اللافتة اللذيذة المأخذ، واللفظ الشريف، والوصف الدقيق،الذي يكشف عن أسلوب فريد

ونجد التوحيدي في نصه ضليع بفنيات القص وآليات الحكي،لابصفته ناقلًا لمقولات قول آخر، بل قاصًا ينسج مقولاته القصصية من خياله المبدع».

اعتمد التوحيدي على إضفاء الطابع الأدبي على النصوص العلمية والفلسفية،وظهرت جماليات السرد الفلسفي عند التوحيدي في تفاوت حضورالخيال في سرده،وترابط مكونات البنية السردية في نصه،وأعاد التوحيدي صياغة الأخبار الشفوية صياغة قصصية معتمدًا على خياله،وتميز التوحيدي بلغة سردية جديدة مع استخدامه للمحسنات البديعية بما يخدم الفكرة عنده،وحتى المضامين كانت جديدة منطلقًا في سرده مما أخذه من الثقافة العربية ومعارفها وعلومها «وتلعب اللغة دورًا مهمًا

عند أبي حيان التوحيدي في تحويل "المعلومة"إلى "حكاية"ومن خلالها يستطيع أن يقرب أكثر الموضوعات جفافًا إلى "الإمتاع والمؤانسة" في عالم الحكايات».

جعل التوحيدي اللغة السردية أداة طيعة لسرد حكاياته،وغايته كانت تحقيق المتعة في السرد عن طريق تلك اللغة،وتضمن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي«مادة فلسفية معتمدًا على الأسلوب السردي، وعلى تقسيم الكتاب إلى ليال على غرار ليالي"ألف ليلة وليلة"في كل ليلة مجلس لمطارحة قضية ما...ولكنه يقتصر من الناحية القصصية،إذ تأتي أخباره قصيرة أشبه بالأمثال،دون أن يعني ذلك خلوه من نادرة طريفة أوموقف سردي طريف،والكتاب يوحي بجو سردي عام من خلال الحوار بين أبي حيان وبين الوزير أبي عبد الله العارض».

إن قصر أخبار التوحيدي وطرافتها سهل عملية فهمها وتقبلها،ومامَيَّز سرد التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة هو تتالي السرد عبر سلسلة من الليالي،وظهر لون السمر فيها،ولاسيما أن أسلوب المحاورة طغى على جلساته مع الوزير،واهتم التوحيدي بعرض الأفكار الفلسفية وتحليلها،وكان يزهد في تجويد الشكل،ونجد التوحيدي«يحاكي الجاحظ في أسلوبه الفلسفي والأدبي،فيترك السجع،ويقبل على الازدواج،غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية،التي تقبلها الناس في ذلك الحين».

نجد أن التأليف الفلسفي يتطلب من الأديب تركيز اهتمامه على المضمون،وفي سياق متصل يقول التوحيدي:«هذا وأنا أفعل ماطلبتني من سرد جميع ذلك، إلا أن الخوض فيه على البديهة في هذه الساعة يشقُ ، ويصعُب بعقب ماجرى من التفاوض ،فإن أذنت جمعتُه كلَّه في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل،والحلو والمر،والطري والعاصي،والمحبوب والمكروه».

تجلت سعة اطلاع التوحيدي على المعارف والفنون في تناوله لمواضيع عديدة ارتبطت مست مجالات أدبية واجتماعية ودينية،جمعت أمور متناقضة محببة ومكروهة «تلك هي مزية السرد الفلسفي،فهو يعتمد التناقض،وينطلق منه إليه».

اعتمد التوحيدي على تقنيات عديدة في سره ، ومنها تقنية الترتيب «وتمثل هذا الترتيب في ليالي الإمتاع والمؤانسة،حيث يقدم الراوي لكل ليلة،ويشير كذلك إلى نهايتها ،ثم يعاود تقديم ليلة ثانية..ووظف الراوي كل التقنيات الخاصة ببطء السرد أو سرعته،حيث يوظف تقنية الوقفة في المرويات ذات المقاطع الوصفية،وتأتي تقنية الحذف معبرة عن الحال التي يعيشها الراوي وتحوله عن متابعة السرد ،فيلجأ إلى هذه التقنية،فالليلة الثامنة والعشرون لاتتجاوز صفحة واحدة».

ظهرت تقنية الترتيب في سرد التوحيدي على وجه الخصوص في كتاب الإمتاع والمؤانسة،واعتمد التوحيدي على تسلسل السرد وفق ليالي متتابعة يحكمها إيقاع سردي منظم، والسرد عند التوحيدي لايسير على وتيرة واحدة فقد وظف تقنيات عديدة ومنها تقنية الوقفة،وكذلك تقنية الحذف؛أي اختزال الأخبار، والاقتصار على أهمها تماشيًا مع حالته النفسية.

4-جمالية التلقي في السرد الفلسفي عند التوحيدي:

كانت إحدى غايات التوحيدي إمتاع المتلقي ومؤانسته،ولذلك «عمد إلى تأسيس تلقٍ على مستويات عدّة معتمدًا في إنجاز الفعل السردي على دراية وخبرة ،ولم يعد خطاب التوحيدي خطاب إمتاع ومؤانسة ، بل إنه حاور ابن سعدان ليقدم له حلول معرفية، والرد عنه أداة للتحليل، وهو الأمر الذي دفعه إلى إنتاج خطاب مقاوم لأشكال السلطة المختلفة،وتمثل هوية التوحيدي السردي ذات كبيرة وهشة،ولذلك قيل عن التوحيدي بأنه "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"،ومايؤثر على التوحيدي أنه لُقب "بالجاحظ الثاني" يذكرنا بأسلوب أستاذه الجاحظ ».

ظهرت الغايات الجمالية للتوحيدي في سرده المشوق الذي يجذب اهتمام فئات المتلقين ،وتعداه إلى تحقيق الإفادة من خلال محاوراته المعرفية ،وحاول محاكاة الجاحظ في أسلوبه الأدبي ،وتفوق عليه في تعمقه في تحليل الفلسفي للقضايا «وإن الحاكي

بعد أن تحقق له مُناخ القص الملائم،في حاجة إلى تأكيد نجاحه فيماأُسند إليه وقُدرته على تحقيق"الإمتاع والمؤانسة" من خلال القصص والكلام».

جعل التوحيدي عنوان كتابه الإمتاع والمؤانسة غايته الأساسية من التأليف،فلم يكن يقص الأحداث والحكايات بطريقة عشوائية بل كان له منهج خاص«وإن منهجية التوحيدي في تحريك السرد باتجاه الغايات والمقاصد، وتوظيف التقنيات اللازمة تدل على قدرة فائقة تتحدد ماهيتها وضابطها الجمالي في الأثر الذي تحدثه في المتلقي».

مماسبق لاحظنا أن التوحيدي اعتمد على تقنيات عديدة في سرده،ومنها الحذف أوالترتيب،ونشير إلى أنه يهتم بالأفكار والمضامين ويتعمق فيها على غرار فنيات القص عنده « والمشهور أن التوحيدي أديب متفلسف،تغلب عليه صفة الأديب، أما الفلسفة التي نراها في كتبه في الغالب ماقام به من جمع لآراء معاصريه من الفلاسفة،الذين اتصل بهم ..وإن الآراء الجمالية التي نجدها عند التوحيدي متأثرة بالفلسفة اليونانية».

غلب الطابع الفلسفي على سرد التوحيدي،ويعد كتاب الإمتاع والمؤانسة أهم مؤلف عالج فيه التوحيدي الكثير من الموضوعات من أخبار أدبية وفلسفية ومنطقية وسياسية وجمالية،وتعرض فيه لتحليل ومناقشة قضايا مختلفة.

ومما تقدم نرى بأن السرد الفلسفي تكرس في القصص والكتابات النثرية على وجه الخصوص،وظهرت معالم القصة الفلسفية عند ابن سينا وابن طفيل وغيرهما،ولاحظنا أسلوب سردي جديد عند التوحيدي خصوصًا في كتابه الإمتاع والمؤانسة وعندما نقارن بين أبي حيان التوحيدي والجاحظ من حيث الأسلوب نجد أن الجاحظ أسلوبه بليغ وتوجهه اجتماعي، وبينما أسلوب التوحيدي يميل للتوسط مع عرضه للأفكار، ونقدها من منظور فلسفي صرف .

ومنه اتضح أن غاية الأدباء من السرد الفلسفي هي طرح قضايا ومعالجة إشكالات أدبية وغيرها ،ولاحظنا وحدة الموضوع عند ابن طفيل هو قصة حي بن يقظان ، وتعدد المواضيع المتناولة في سرد التوحيدي، وانصب اهتمام الأدباء في السرد الفلسفي على المضامين أكثر من الصياغة الشكلية .